هبة الكاوي

العجاف الثلاث

بعد ليلة دافئة مع أصدقائي.. أسكرت فيها الخمر عقلي المثقل بالهموم.. توقفت عند شجرة في طريقي إلى البيت.. كانت صديقتي الوفية وسكني الأوحد وملاذي الدائم، فأنا أعيش بين طيات ذاتي.. وحيدًا.. شريد الروح.. أتحسس الطريق إلى الراحة.. لكني لم أصل إليها بعد.

جلست مسندًا رأسي إليها.. وناظرًا إلى السماء التي كانت تحاك بظلام الليل، رجوت عقلي أن يكف عن العمل، وكيف لا وهو منشغل بأحوالي البائسة التي لم تعد ترضي نفسي الساعية إلى الطموح، وبأمنية تملكت شغاف روحي.. لكني عاجز عن الوصول إليها.

رحت أخلد إلى غفلة تجعلني بمأمن من تلك الأصوات التي تزاحم راحة بالي!

في لحظة توقف عندها الزمن، كان هناك ضباب يعم المكان.. أصوات طرق لا أعلم من أين أتت، انتبهت لها.. ثم تزايدت.. أهم بأن أرى مصدرها، لكن الضباب تكشف عن طفل، كل مايظهر من ملامحه هالة النور التي أضفت عليه جمالا يصرع الأعين.. ظل يتقرب مني لتغشاني الدهشة.. تجمدت الدماء في عروقي.. أكاد أسمع أزيز اصطكاك أسناني الأمامية.. ورغم ذلك شعرت ببراح من الألفة بيني وبين هذا الطفل..

- مابك؟

- ومن أنت؟ لماذا يعنينك أمري؟

- أنا صوت ضميرك.. وعنوان روحك.. أنا الذي تخاف دومًا أن تسمعه.. تظنني أتجنى عليك.. أو أغرقك في بحار من الهموم والظنون.. وأنا ليس لدي غاية إلا سعادتك وهناؤك الأبدي.

- وماذا تريد إذن مني الآن؟ دعني لأحزاني؛ فأنا لست مستعدًا لاستقبال ضيوف تزيد الهموم أثقالا.

- لكني هذه المرة لا أنوى عتابك، إنما أود أن آخذ بيديك إلى النور.. فأصلح شرخ وجدانك.

- - وكيف ستفعل؟

- حسنا سأخبرك.. ولكن عليك أن تعدني أن تستمع إلى نصائحي.. أمامك ثلاث محاولات للخروج من هالات أحزانك، حاول أن تسعى بجد.. ولا تلتفت إلى المحاولة إذا خسرت.. وضع في رأسك جدية المحاولة.. والنجاح سيكون حليفك لامحالة.

- حسنا.. هات ماعندك.

- عليك أن تكتب، اكتب حتى أوان الثمالة، عن نفسك، وعن أثر كل لحظة فارقة في وميض روحك.

- لكن هذا كثير، وسيأخذ مني وقتا طويلا!

- هكذا دوما الطريق، أوله صعب ياصاحبي.. وآخره راحة.

أمدني بورقة شجرة لأكتب عليها.. تدفأت بصوت حفيفها الذي كان يؤنسني في الكتابة وحدي بلا رفيق.. فقد ذهب صوت ضميري.. ولا حيلة لي أن أستدعيه الآن، ما إن بدأت في الكتابة حتى انطلقت.. أتكلم عن آهاتي.. طفولتي البائسة.. أعمار الشقاء.. ولحظات السعادة.. الحيرة.. التوهان.. عن يتمي وأنا في سن صغيرة.. لا أحد يرعاني سوى خالي الذي أحبط روح حلم الكتابة بداخلي، فهل يكون لي فرصة تحقيقه الآن؟! انتهيت من كتابة قصاصتي الأولى.

وما إن انتهيت حتى ظهر لي صوت ضميري ثانية:

- لنرَ ما أنجزته..

نظر إلى قصاصتي، وأنا أتطلع إليه بكل ترقب وخوف وفضول لأعرف رأيه.

صمت يسود المكان.. فترة ليست بقليلة..

قال مخترقا حاجز الصمت:

- محاولة غير كافية للخروج من أحزانك.. لكنها في المقابل جيدة.. ستطير بك إلى بساط المحاولة الثانية..

ابتسمت.. ورجوت أن تكون المحاولة الثانية أيسر قليلا..

هذه المرة أمدني بفرع شجرة.. ثم قال:

- عليك أن تكتب تلك المرة عن قصة تدور حول أحدهم.. في مكان ما، لديه حلم عظيم.

- لكن ذلك مرهق جدا.. إن الطاقة التي في روحي لا تكفي لأن أمشي في ربوع الكتابة... أنا متعب.

- حسنا.. إذن عليك أن تتحمل أن تظل سابحًا في يأسك طوال العمر.

هم بالانصراف.. لكني اعترضت طريقه:

- حسنا سأكتب.

انطلقت هائما في خيالي.. أنثر خيوط البداية.. الصعوبات التي واجهها.. الأبواب التي أغلقت بوجهه.. الجروح التي أدمت روحه وفي باطنها مداواة له.. وكل حكمة تجلت من بحار صراعاته، وكل تنهيدة تُطلق عند انتهاء التعب، وصوت الفرح الذي كان ملازمًا الخطوة تلو الخطوة نحو الحلم.

أسندت رأسي عندما جف الحبر.. فظهر صوت ضميري لي من جديد..

- لنرَ ما في جعبتك أيها البطل.

هذه المرة.. لم يطل الصمت.. إنما رأيته يبتسم.. ليقول لي:

- محاولة رائعة.. لكنها لا تدرك النصر أيضًا.. أكاد أجزم أن المحاولة الثالثة تتشوق لرؤياك ياعزيزي.

فرت مني نصف ابتسامة زينها التعب.. فخرجت بين فرح لم يكتمل.. وحزن على وشك أن يزول.

هذه المرة.. أشار لي أن أكتب على جذع شجرة بجانب صديقتي.. أصولها راسخة.. وفروعها حية، لكن ثمارها لم تنضج بعد:

-أكمل القصة تلك المرة.. واكتب عن تلك اللحظات التي شارف فيها على النجاة بحلمه.

أومأت بالموافقة.. تلك المرة لن أعترض.. فلقد استحسنت روحي الأمر.. وشعرت بالنور يغمرها.. ودوائر الظلام بدأت في الانقشاع.

سارح في الملكوت.. عاشق لقلمي.. وسطوري التي أخطها فوق جزع الشجرة، عدوت مسرعا لأسقي القصة حلاوة النهاية... فهنا بهجة تعدت كل الوصف، وأزهار روح تتفتح من جديد.. جروح تنسى كأنها لم تكن، وسراب فتك به الأمل فأضحى حقيقة بين ليلة وضحاها.

تريثت منتظرا صوت ضميري.. لكنه لم يأت.. لمحت شيئا نثر عطر السعادة بداخلي.. وجدت تلك الشجرة التي خطت عليها يداي تزدهر ثمارها في منظر تقشعر له الأبدان.. أنساني تعب تلك

الساعات العجاف التي قضيتها في احتضان خطواتي الأولى في عالم الكتابة.

حمدت الله شكرًا.. فأخيرًا اكتملت القصة الأولى لتكون بداية سيمفونية حلم تشبعت به روحي.. وهكذا كانت لحظات الخروج... وطيب الوصول.